الحمّال ...
نماذج مصورة على الآثار العربية

الدكتور صلاح حسين
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

من المعروف ان كتب التاريخ قد أهملت كثيرا من مظاهر الحياة الاجتماعية العربية وبصورة خاصة ما يتعلق بأصحاب الحرف والمهن المختلفة ، وتفسير ذلك ان جمهور مؤرخي العصور الوسطى لم يكتبوا عن حالة البلاد الاجتماعية وطبقات الناس بل اقتصر كلامهم في اغلب الاحيان على الحالة السياسية وما يجري في بلاط الخلفاء والسلاطين ، لذا نراهم يتوسعون ويسهبون في الحديث عنها ، أما عامة الناس فلا تأتي ذكرها في كتبهم ومؤلفاتهم الا عرضا وبقليل من الاهتمام والتفصيل ، لذا بقى هذا الجانب بعيدا عن الدراسة والبحث .

لكل ماتقدم رأيت ان اكتب عن اصحاب الحرف والمهن ، واخترت شخصية الحمال موضوعا لهذا البحث أملا ان تتناول ابحاثنا التالية شخصيات اخرى من أصحاب الحرف والمهن ، وهذا البحث محاولة للتعرف على شخصية الحمال من واقع الآثار العربية ، حيث امدتنا تلك الاثار بمعلومات كثيرة وقيمة حول شخصية الحمال وملابسه ، وادوات مهنته وهي في حقيقتها تعتبر مادة اساسية يستند عليها هذا البحث .

اما المعلومات التي جاء بها المؤرخون بشأن الحمال فقد كانت

شحيحة مقتضبة وغالبا ما تأتي في سياق قصة ، او ذكر حادثة يستشهد بها ويقولها في سياق الحديث على انها لا تعني شيئا ومع ذلك يمكن ان ننتفع منها في الوقوف على بعض المعلومات وهي في حقيقتها تعتبر مكملة لما هو مصور او منقوش على الاثار المختلفة .

جاء في لسان العرب « ورجل حمال : يحمل الكل عن الناس » [1] .

والحمال : حامل الاحمال وحرفته الحمالة [2] . ويقال للموضع الذي يضع الحمال حمله عليه ويستريح مستراح [3] .

ومن هذه المعلومات ايضا ما يفيد ان الحمالين كانوا يتواجدون في الاسواق العامة ، وكان عليهم ان يستصبحوا معهم الوسيلة التي بواسطتها لاحدهم حمل حمله،مثل الاقفاص وغيرها، فقد جاء فيحكاية «الحمال مع البنات» في الف ليلة وليلة[4] مانصه : «كان في بغداد حمال أعزب ، فبينما هو في السوق يوما من الايام متكئا على قفصه اذ وقفت عليه امرأة .. فقالت له بصوت رخيم هات قفصك واتبعني .. ثم حمل القفص وتبعها على دكان فاكهة واشترت منه تفاحا شاميا وخوخا عمانيا وتبعها به الى ان اتت دار مليحة .. » .

وتفيد النصوص التاريخية والادبية ان الحمالين يتواجدون أيضا في الموانىء والجزر التي تقع على البحار لان طبيعة الحياة في مثل هذه الاماكن تتطلب وجود امثال هؤلاء ، فقد جاء فى حكاية السندباد البحري من الكتاب المذكور انفا [5] ان السندباد في احدى سفراته صادف ان رست السفينة التى تقله الى احدى الجزر فأمر الحمالين باخراج البضائع من السفينة الى الجزيرة .

وجاء في كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار : كان

للخلفاء الفاطمين في مصر اماكن تخزن بها الغلال والاتبان ولا تفتح الا عند الضرورة وكان لها الحماة من الامراء والمشارفين العدول والمراتب واصله اليها بأصناف الغلال الى ساحل مصروالحمالون يحملون ذلك اليها بالرسائل على يد رؤساء المراتب وامنائها من كل ناحية سلطانية (٦) .

واستخدم الحمالون في مصر نقل مياه اشرب ويقول المقدسي(٧) وكانت طريقة امداد الناس بالماء في قصبة القطر المصري طريقة لا اثر للرق قط فكان أهل مصر يشربون ماء النيل يحمله الحمالون في الروايا ويصعدون الدور كل طبقة بنصف دانق .

وقد اشار ابن الفوطي(٨) الى اعمال اخرى للحمالين في العصر العباسي مثل نقل الكتب ، ومما يذكر بهذا الصدد انه « عند افتتاح المدرسه المستنصرية نقل اليها الكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حمله مائة وستون حمالا » .

ويذكر الصابي (٩) ان عضد الدولة حمل الى الطائع من الالطاف والصواني والدست والطارمة ما حمل على خمس مائة حمال .

وتظهر صورة الحمال في تصويره (١٠) (لوحة ١) من مخطوط مقامات الحريرى ، وهي تمثل حانوتا الى جهة اليسار ممثلا في واجهة تضم اربعة اعدال بصورة افقية فوق بعضها في واجهة الحانوت ، بينما وقف شخص الى يسار الحانوت وقد مد يده اليسرى الى اليسار ومال بوجهه الى نفس جهة يده ، كأن يخاطب شخصا آخر ، واما الشخص المخاطب فهو يمثل حمالا يحمل فوق ظهره عدلا من نفس الاعدال الموضوعة في الحانوت ، وقد ربط العدل بواسطة حبل اشبه ما يكون بالسفيفة ، وقد شدها على العدل وامررها فوق كتفيه ومن تحت

لوحه رقم (١)

الحنك مباشرة ، وقبض عليها معقودة بقبضته امام وجهه ، وجـــرى ماشيا فخطا الخطوة الاولى مقدما رجله اليمنى ، بينما تأهبت قدمـه اليسرى الى الارتفاع عن الارض في خطوة لاحقة . اما ملابس الحمال فهي مؤلفة من سروال ، ودراعة ، ومنطقة ، والسروال من النـوع الطويل الذى يصل الى نهاية الساق وهو واسع فضفاض يمتاز بكثـرة طياته ، وهو من النوع الذى يفصل بعرض واسع عند منطقة الخصر ، لكي لا يعيق لابسه عند الحركة ، والسروال خال من اية زخرفـــة باستثناء الطيات الممثلة عليه ، مما نرجح معه ان يكون مصنوعا مـــن قماش لين مثل القطن . اما الدراعة فهي من الملابس الخارجية للرجال وهي عبارة عن جبة مشقوقة المقدم [١١] ، وتظهر في الصورة على انها قصيرة وتصل في الطول الى منتصف الساقين تقريبا ، الا انها فضفاضة، كما يظهر ذلك من كثرة طياتها ، ووضوحها ، والدراعة مثبتة علـــى الجسم بواسطة نوع من الاحزمة تعرف بالمنطقـــة [١٢] والمنطقـــة كما نشاهدها في الصورة مركبة من رقائق معدنية صغيرة مستديرة متصلة مع بعضها . ويضع هذا الحمال فوق رأسه غطاءا مؤلفا من قلنسوة ، والقلنسوة ما يوضع على الرأس تكويرا [١٣] .

وملابس هذا الحمال ، بصورة عامة تمتاز ببساطتها وهى خالية من التأنق وليس بها من ضروب التوشية والزركشة شيء . وان ســـعة الملابس وفضفاضيتها راجع الى انها تساعد على تحقيق مايلزم للجسم من التنفس ، وللاعضاء من الحرية وكذلك منسجمة مع المنظر الطبيعي العام ومع البيئة لصاحب هذه المهنة .

وتفيدنا صورة اخرى (لوحة ٢) [١٤] نموذجا طيبا لشخصيـــة الحمال وهي تظهر في جزء من صحن من الخزف ذي بريق معدنـــي يرجع الى القرنين الخامس او السادس الهجري « الحـــادي عشر ،

لوحه رقم (٢)

او الثاني عشر الميلادي» وهو من مجموعة اراكيل نوبار بباريس ،وقوام الزخرفة في هذه التحفة رسم لحمال ملتح يضع حملا مؤلفا من سلة برميلية الشكل عميقة ذات زخرفة مؤلفة من خطوط متقاطعة شكلها اقرب ما تكون الى السلال ، المصنوعة من مادة الخوص ، ولا يمكن تمييز ما في هذه السلة من مادة بالرغم من ظهورها من فوهة السلة ، وقد شد الرجل السلة على ظهره بحبل امرره من فوق السلة ، وعلى جانبيه من فوق العضد ، وأمسك بطرف الحبل من امامه ، وتبدو على الصورة انفعالات الحمال ، حيث يتبين لنا من خلالها الحمل ثقيلا ، ومع ان الحمال لم يكن منحني الظهر تحت وطأة الحمل ، الا انه يبدو في الصورة وقد تقوس جسمه بصورة عامة ، ويبدو ان الرسام لم يوفق الى ذلك كليا .

وعلى العموم قد وفق المصور في اظهار الانفعالات والمعاناة التي رسمها على وجهه ، فهي صورة ناجحة قياسا الى الصور السابقة .

وقبل مغادرة صورة هذا الحمال ، الى صورة اخرى غيرها ، لابد ان اشير كذلك الى الملابس التي يرتديها ، ويبدو ان ظهر الحمال وصدره يغطيه نوع من الملابس اقرب في شكلها الى ما يعرف في الوقت الحاضر بـ (الجندة) المستعملة من قبل الحمالين ، وهي تصنع من مادة اللباد [١٥] والغرض من استعمال الجندة من قبل الحمال ، هو حماية الجسم من الاثقال التى يحملها ، وقد شد الحمال وسطه ببند من النوع العريض ، بواسطة انشوطة نلاحظها من جهة الساق اليسرى ، وقد دس جزءا من طرف البند تحت الانشوطة ،وترك احدى نهايتي البند سائبة من تحت الانشوطة في طيات عريضة .

وترينا صورة ثالثة [١٦] (لوحة ٣) مرسومة على قطعة من النسيج ذات زخرفة مطبوعة ترجع الى القرن الثامن او التاسع الهجري

لوحہ رقم (۳)

« الرابع عشر او الخامس عشر الميلادي » وهي محفوظة في متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رسما يمثل حمالا يضع كيسا على ظهره ، وتتألف زخرفته من خطوط متقاطعة تشكل من تقاطعها ومستطيلات ، وقد انحنى الحمال انحناءة تامة تحت وطأة الحمل ، وقد خطا خطوة واسعة كأنه يريد ان يسرع في المشي ، ولم يظهر في الصورة ان الحمال يشد الحمل الى ظهره شدا بخلاف الامثلة المتقدمة التى شاهدناها ، وانما يبدو فى الصورة وقد رمى الحمل على ظهره رميا ، جعله ينحني في حركة تومي بأثر ثقلها ، وتظهر ذراعه اليسرى مرفوعة وراء رأسه ، اما اليد اليمنى فممتدة الى الامام .

ويبدو ان الفنان في هذه الصورة لم يكن موفقا كل التوفيق فى ابراز معاناة هذا الحمال فظهرت الصورة بسيطة ساذجة جدا ، ضعيفة من الناحية الفنية ومراعاة النسب ، ويشاهد الحمال هنا ، وقد بدأ النصف العلوي من بدنه عاريا بينما اكتسى النصف الاسفل من البدن[١٧] بقطعة قماش اقرب ما تكون الى الفوطة ، والفوطة من ملابس الحمال فقد ذكر ابن منظور[١٨] ان الحمالين والخدم كانوا يئتزرون بالفوطة ، وقد جاءت الفوطة هنا ضيقة ومحبوكة على الجسم وتصل في الطول الى اعلى الركبتين ، وهي مؤلفة من زخرفة تشبه زخرفة قماش الكيس الذي يحمله .

ومن التحف الاثرية التي يظهر فيها رسم الحمال ايضا ، حشوتان لصندوق من العاج[١٩] من القرن الثامن او التاسع الهجري « الثالث او الرابع عشر الميلادي » محفوظ في متحف قصر بارجلو في فلورنسه . تمثل الحشوة الاولى (لوحة ٤) منظرا قوام الجزء العلوي منه رسم لشخص يطعن حيوانا ، أما الجزء الاسفل من الصورة فهي تمثل حمالا يضع على ظهره سلة من الخوص ذات غطاء ، وقد شد السلة على

لوحه رقم (٤)

ظهره بواسطة حبل امرره من اسفل حافة السلة ، وتظهر الحافة في الصورة على هيئة اخدود ، الغرض منها هو تثبيت السلة على الجسم بواسطة الحبل وامراره بالاخدود المذكور ، والحمال في حالة الحركة السائرة من اليسار الى اليمين ، وقد خطا برجله اليسرى الى الامام ، وتأهبت رجله اليمنى لخطوة لاحقة .

اما الملابس التي يرتديها هذا الحمال فلا تظهر في الصورة بشكل واضح ، مما يتعذر معه تسمية نوعيتها ، وبيان شكلها ، الا اننا نرجح ان تكون ملابس البدن مؤلفة من الدراعة ، وقد ثنى هذا الحمال كم الدراعة الايمن الى منتصف الذراع ، والدراعة مزخرفة باشكال هندسية ، قوامها نجمة سداسية الاطراف ، تحصر بداخلها اشكالا اقرب ما تكون الى الزخرفة من فصيلة النبات ، كما نلاحظ وجود ثنيات تنبثق من نقطة عند البطن وعند اسفل الظهر . وقد جاءت تلك الثنيات على شكل خطوط طويلة ، تمتد من اعلى الى اسفل ، وعلى هيئة خطوط تتسع من مركز واحد ، ويبدو ان هذه الطيات جاءت نتيجة لحركة الحمال . فقد كان الرسام موفقا كل التوفيق في ذلك ، حيث استطاع ان يعبر بصدق وواقعية عن الملابس وطياتها وعن توزيع الزخرفة .

ونرجح ان يكون قماش الدراعة من الصوف ، وذلك لصلابة الطيات الظاهرة عليه ، ويلاحظ ان دراعة هذا الحمال ، مثبتة على جسمه برباط اقرب ما يكون الى البند .

اما الحشوة الثانية (لوحة ٥) فهي مؤلفة من منظرين ، سفلي وعلوي ، السفلي يمثل منظر فلاحا يقوم بعمله المعتاد ، بينما المنظر العلوى رسم لحمال في وضع الحركة السائرة من اليسار الى اليمين ،

لوحه رقم (٥)

وقد وضع على ظهره سلة مصنوعة من الخوص مملوءة بعناقيد العنب ، وقد شدها على ظهره بواسطة حبل مظفور ، امرره من خلال حلقة مثبتة على سطح السلة ، تظهر على الجانب الايمن ، ونرجح ان تكون هناك حلقة اخرى على الجانب الايسر ، والغاية من هاتين الحلقتين هو تلافي سقوط السلة وتثبيتها على ظهر الحمال ، وقد امسك الحمال طرف الحبل الايمن باليد اليسرى ، بينما جاءت قبضته للطرف الاخر ، بشكل معاكس ، بحيث امسكه باليد اليمنى وقد تدلى طرفا الحبل الى الاسفل ، وقد خطا الحمال بساقه اليمنى الى الامام ، بينما بقيت الساق اليسرى ثابتة .

ويبدو الحمال في الصورة منحنيا تماما ، مما يدل على وطأة الحمل الذي على ظهره ، كما ارتسمت على وجهه علامات البؤس .

ويرتدي هذا الحمال الدراعة اسوة بالحمالين الذين مر ذكرهم ، ومما يجلب الانتباه انه توجد عند وسط هذا الحمال ، جزءً من الدراعة تتدلى فوق منطقة البطن ، ويدل ذلك على وجود حزام وان هذا القسم المتدلي من الدراعة ، يخفي الحزام نفسه ، كما يلاحظ في الصورة ، ان الحمال قد ثنى ذراع الدراعة الايمن الى اعلى ، وقد توخى من ذلك اعطاء الايدي حرية الحركة ، والدراعة خالية من اية زخرفة ، الا من خطوط طولية تمتد من اعلى الى اسفل ، عوض بها الفنان عن الطيات التى بدأت معها الدراعة رقيقة ناعمة وكأنها مصنوعة من قماش رقيق جدا . اما غطاء الرأس ، فيتألف من قلنسوة ، ويلاحظ ان للقلنسوة حافة مخيطة وتنتج عن خياطتها حدوث كشكشة كما هو واضح في الصورة .

اما ملابس القدم التى يرتديها الحمال ، فهي نوع من الاحذية لها رقبة طويلة ، والقسم العلوى من الحذاء الذي يبدأ من منطقة التقاء

القدم بالساق ، مؤلف من قياطين ملفوة حول الساق والى منتصفه . وهناك نقطة جديرة بالملاحظة وددت الاشارة اليها ، وهي ان طبيعة هذين الحمالين من خلال ملابسهما ، والشلال التي يحملانها ، يجعلنا نرجح معه عدم اعتبارهما حمالين اعتياديين لعامة الناس ، وانما مختصان لطبيعة معينة من المجتمع . ثرية او حاكمة ..

---

(١) ابن منظور (طبعه صادر بيروت) مادة « حمل » حـ ١١ ص ١٨٠

(٢) نفس المصدر حـ ١١ ص ١٧٠ .

(٣) العسكرى : كتاب تلخيص الاسماء والاشياء ص ١ ص ٢٦٣ .

(٤) تراجع صفحة (٤٨) من الكتاب .

(٥) نفس المصدر ص ١٠٧ .

(٦) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار حـ ١ ص٤٦١

(٧) المقدسي : احسن التقاسيم ص ٢٠٧ .

(٨) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٥٤ .

(٩) الصابي : رسوم دار الخلافة ص ١٠٠ .

والدست مايهيأ للجلوس عليه للخليفة او الامير او الوزير وكبار الناس . انظر حاشية ص ١٣ .

والطارمه : قبة تتخذ من نفيس الخشب وتطبق بأنواع الحرير والديباج والابريسم .

انظر المسعودى مروج الذهب حـ ٦ ص ٤٢٦-٤٢٧ .. وانظر كذلك رسوم دار الخلافة ص ٩٨ .

(١٠) بغداد : بحوث من اعداد الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسه محمد مكية والاستاذ ناجي معروف ص ١٨٧ .

(١١) ابن سيدة : المخصص جـ ٤ ص ٣٦ .

(١٢) المنطقة : هي كل ما شددت به وسطك (ابن سيدة /المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٨ .

(١٣) ابن سيدة : المخصص جـ ٤ ص ٩٢ .

(١٤) انظر زكي محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية شكل (٦٢).

(١٥) اللباد : عبارة عن عملية لصق او تلبيـد للصوف المندوف بطريقة صمغية او صابونية لا اثر للنسيج فيها .

(١٦) انظر زكي محمد حسن اطلس الفنون الزخرفية شكل (٦١٠).

(١٧) الفوطة : ضرب من الثياب قصار غلاظ تكون مأزر وواحدتها فوطة / ابن سيدة المخصص جـ ٤ ص ٧ .

(١٨) لسان العرب : جـ ٧ ص ٣٧٣ .

19 - S. Rice: Seasons and Labors of the Month (in Ars Orientalis. Vol. 1 1954) pl . 19).

المراجـــع

١ ـ الف ليلة وليلة ـ طبعة دار الهلال

الجهشياري . ابو عبدالله محمد بن عبد وس

٢ ـ الوزراء والكتاب . حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا وابراهيـم الابيارى وعبدالحفيظ شلبي . مطبعة الحلبي ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م .

ابن سيده : ابو الحسن علي بن اسماعيل .

٣ ـ المخصص ـ ١٧ جزأ . المطبعة الاميرية ببولاق القاهرة (١٣١٦ ـ ١٣٢١ هـ) .

الصابي : ابو الحسن الهلال بن المحسن .

١٣٢١ هـ) الصابي : ابو الحسن الهلال بن المحسن .

٤ ـ رسوم دار الخلافة ـ تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة العاني ببغـداد ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ .

العسكري : ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل .

٥ ـ كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء . تحقيق د . عزة حسن . مطبوعات مجمع اللغة العربيـة بدمشق (١٣٨٩هـ/١٩٦٩ م) (١٣٩٠ هـ /١٩٧٠ م) .

ابن الفوطي : ابو الفضل عبدالرزاق بن احمد .

٦ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة تحقيق د . مصطفى جواد . مطبعة الفرات بغداد ١٣٥١ هـ .

المسعودى : ابو الحسن علي بن ابي الحسين بن علي .

٧ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ . باريس ١٨٧٧ م .

المقريزى : تقي الدين احمد بن علي

٨ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار . جزأن . مطبعة بولاق .

ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم

٩ ـ لسان العرب (١٥) مجلدا . دار صادر ـ بيروت ١٣٧٤/١٣٧٦ هـ .